أما السواد فيُقصد به الوجه المشوّه المنفّر ، وإلا فالسواد لا يُذَم في ذاته كلون ، وكثيراً ما نرى صاحب البشرة السوداء يُشع جاذبية وبشاشة ، بحيث لا تزهد في النظر إليه ، ومعلوم أن الحُسْن لا لونَ له .

والله تعالى يَهَبُ الحُسْن والبشاشة ويُشعّهما في جميع الصور . وقد ترى للون الأسود في بعض الوجوه أسْراً وإشراقاً ، وترى صاحب اللون الأبيض كالحاً ، لا حيوية فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ .. (٤٣) ﴾ [القصص] قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، يعني : أن موسى ـ عليه السلام ـ جاء بَرْزَخاً وواسطة بين رسل كذَّبتهم أممهم ، فأخذهم الله بالعذاب ، ولم يقاتل الرسل قبل موسى ، إنما كان الرسول منهم يُبلِّغ الرسالة ويُظهر الحجة ، وكانوا هم يقترحون الآيات ، فإنْ أجابهم الله وكذَّبوا أوقع الله بهم العذاب .

كما قال سبحانه :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا[1] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وهذا كله عذاب استئصال ، لا يُبقى من المكذبين أحداً .

ثم جاء موسى ـ عليه السلام ـ برزخاً بين عذاب الاستئصال من الله تعالى للمكذِّبين دون تدخُّل من الرسل فى مسألة العذاب ، وبين رسالة محمد ﷺ ، حيث أمره الله بقتال الكفار والمكذِّبين دون أن ينزل بهم عذاب الاستئصال ، ذلك لأن رسالته عامة فى الزمان وفى المكان إلى أن تقوم الساعة ، وهو ﷺ مأمون على حياة الخَلْق أجمعين .

لذلك يقول تعالى فى مسألة القتال فى عهد موسى عليه السلام : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة] إنما فى عهده وعصره ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

---

(١) عدَّد الله هنا أربعة أنواع من العذاب :
- ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هم : قوم عاد . أرسل الله عليهم ريحاً عاتية حملت عليهم حصباء الأرض ، فألقتْها عليهم واقتلعتهم من الأرض .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هم : قوم ثمود . جاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هو : قارون ، خسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم . [تفسير ابن كثير ٣/٤١٣] .

وقد ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ قال « ما عذَّب الله قوماً ، ولا قرناً ، ولا أمة ، ولا أهلَ قرية منذ أنزل الله التوراة على موسى»[١]

كأن عذاب الاستئصال انتهى بنزول التوراة ، ولم يستثْن من ذلك إلا قرية واحدة هى (أيلة) التى بين مدين والأردن .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا أول تجربة لمهمة ، وتدخّل الرسل فى قصة موسى عليه السلام .

ورُوى عن أبى أمامة أنه قال : وإنى لتحت رَحْل رسول الله - يعنى : ممسكاً برحْل ناقة الرسول - يوم الفتح ، فسمعته يقول كلاماً حسناً جميلاً ، وقال فيما قال : « أيُّما رجل من أهل الكتاب يؤمن بى فَلَهُ أجران - أى : أجر إيمانه بموسى ، أو بعيسى ، وأجر إيمانه بى - له ما لنا وعليه ما علينا »[٢] .

وهذا يعنى أن القتال لم يكُنْ قد كُتب عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (٤٣) ﴾ [القصص] أى : التوراة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ .. (٤٣) ﴾ [القصص] أى : بدون تدخُّل الأنبياء ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ .. (٤٣) ﴾ [القصص] أى : آتيناه الكتاب ليكون نوراً يهديهم ، وبصيرة ترشدهم ، وتُنير قلوبهم ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً .. (٤٣) ﴾ [القصص] هدى إلى طريق الخير ورحمة تعصم

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٠٨/٤) من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ : « ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء غير أهل القرية التى مسخت قردة » وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨٨/٧) « رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ، ورجالهما رجال الصحيح » .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٩٥٦) ، وسعيد بن منصور فى سننه (٩١٣) من حديث أبى موسى الأشعرى ، ولفظه : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم أدركه النبى ﷺ فآمن به ، ثم اتبعه فله أجران » .

المجتمع من فساد المناهج الباطلة ، وتعصمهم أن يكونوا من أهل النار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص]

والتذكر يعني : أنه كان لديك قضية ، ثم نسيتها فاحتجْتَ لمن يُذكرك بها ، فهي ليست جديدة عليك ، هذه القضية هي الفطرة :

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم]

لكن هذه الفطرة السليمة تنتابها شهوات النفس ورغباتها ، وتطرأ عليها الغفلة والنسيان ؛ لذلك يذكِّر الحق سبحانه الناس بما غفلوا عنه من منهج الحق ، إذن : في الفطرة السليمة المركوزة في كل نفس مُقوِّمات الإيمان والهداية ، لولا غفلة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله : ﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص] أي : الجانب الغربي من البقعة المباركة من الشجرة ، وهو المكان الذي كلَّم الله فيه موسى وأرسله ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص] يعني : أمرناه به أمراً مقطوعاً به ، وهو الرسالة .

﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص]

ولك أنْ تسأل : إذا لم يكُنْ رسول الله ﷺ شاهداً لهذه الأحداث ، فمَنْ أخبره بها ؟ نقول : أخبره الله تعالى ، فإنْ قُلْت فربما أخبره بها شخص آخر ، أو قرأها في كتب السابقين .

نقول : لقد شهد له قومه بأنه أُميٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يُعْلَم عنه أنه جلس في يوم من الأيام إلى مُعَلِّم ، كذلك كانوا يعرفون سيرته في حياته وسفرياته ورحلاته ، ولم يكُنْ فيها شيء من هذه الأحداث .

لذلك لما اتهموا رسول الله أنه جلس إلى معلم ، وقالوا : كما حكى القرآن : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] ردَّ القرآن عليهم في بساطة : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وكانوا يقصدون بذلك حدادين روميين[2] تردد عليهما رسول الله . وكذلك كانت الأمة التي بُعث فيها رسول الله أمة أمية ، فممَّن تعلَّم إذن ؟

وإذا كانت الأمية صفة مذمومة ننفر منها ، حتى أن أحد سطحيي الفهم يقول : لا تقولوا لرسول الله أميٌّ ونقول : إن كانت الأمية مَذَمَّة ، فهي ميزة في حق رسول الله ﷺ ؛ لأن الأمي يعني المنسوب إلى الأم وما يزال على طبيعته لا يعرف شيئاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا .. (٧٨) ﴾ [النحل] ونقول في المثل (فلان زي ما ولدته أمه) يعني : لا يعرف شيئاً ، وهذه مذمة في عامة البشر ؛ لأنه لم يتعلم ممَّنْ حوله ، ولم يستفدْ من خبرات الحياة .

---

(١) ألحد إلى الشيء : أشار إليه . ومعناه : أي : لسان الذي يشيرون إليه أعجمي لأنهم كانوا يقولون : إن الرسول يعلمه رجل أعجمي . [القاموس القويم ٢/١٨٩] .

(٢) قال عبيد الله بن مسلم : كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما ، فكان النبي ﷺ يمر بهما فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون : يتعلم منهما فأنزل الله هذه الآية . أورده ابن كثير في تفسيره (٢/٥٨٧) .

أما الأمية عند رسول الله فشرف ؛ لأن قصارى المتعلِّم في أيِّ أمة من الأمم أنْ يأخذ بطرفٍ من العلم من أمثاله من البشر ، فيكون مديناً له بهذا العلم ، أمَّا رسول الله فقد تعلم من العليم الأعلى ، فلم يتأثر في علمه بأحد ، وليس لأحد فضل عليه ولا منة .

لذلك تعجب الدنيا كلها من أمة العرب ، هذه الأمة الأمية المتبدية التي لا يجمعها قانون ، إنما لكل قبيلة فيها قانونها الخاص ، يعجبون : كيف سادتْ هذه الأمةُ العالمَ ، وغزتْ حضارتهم الدنيا في نصف قرن من الزمان .

ولو أن العرب أمة حضارة لقالوا عن الإسلام قفزة حضارية ، كما قالوا بعد انتصارنا في أكتوبر ، وبعد أنْ رأى رجالنا أشياء غير عادية تقاتل معهم ، حتى أنهم لم يشكُّوا في أنها تأييد من الله تعالى لجيش بدأ المعركة بصيحة الله أكبر ، لكن ثالث أيام المعركة طلع علينا في جرائدنا من يقول : إنه نصر حضاري ، وفي نفس اليوم فُتحت الثغرة في (الدفرسوار) .

وعجيب أمر هؤلاء من أبناء جلدتنا : لماذا تردُّون فضل الله وتنكرون تأييده لكم ؟ وماذا يضايقكم في نصر جاء بمدد من عند الله ؟ ألم تقرأوا : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] وبعد أن فُتحت الثغرة ماذا قدمتم لسدِّها ، تعالوا بفكركم الحضاري وأخرجونا من هذا المأزق .

وإذا ثَقُلَ على هؤلاء الاعتراف بجنود الله بين صفوفهم ، أليس المهندس الذي اهتدى إلى فكرة استخدام ضغط الماء في فتح الطريق في (بارليف) لينفذ منه الجنود ، أليس من جنود الله ؟

لقد أخذتْ منَّا هذه الفكرة كثيراً من الوقت والجهد دون فائدة ، إلى أن جاء هذا الرجل الذى نوَّر الله بصيرته وهداه إلى هذه العملية التى لم تَأْت اعتباطاً ، إنما نتيجة إيمان بالله وقُرْب منه سبحانه وتضرُّع إليه ، فجزاه الله عن مصر وعن الإسلام خيراً .

ومن العجيب ، بعد نهاية الحرب أنْ يُجروا للحرب بروفة تمثيلية ، فلم يستطيعوا اجتياز خط بارليف ، وهم فى حال أمْن وسلام .

نعود إلى قضية الأمية ونقول لمن ينادى بمحو الأمية عند الناس بأن يعلمهم من علم البشر : ليتكم قُلْتُم نمحو الأمية عندهم لنعلمهم عن الله .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ** (٤٤) ﴾ [القصص] يعنى : ما رأى محمد هذه الأحداث ولا حضرها ، ومنه قوله تعالى عن شهر رمضان : ﴿ **فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ** .. (١٨٥) ﴾ [البقرة] يعنى : حضره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾

أهل مدين هم قوم شعيب عليه السلام ، وكان لهم شُغُل بالقراءة ، لذلك قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا** .. (٤٥) ﴾ [القصص] أى : مقيماً ﴿ **فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا** .. (٤٥) ﴾ [القصص] أى : تلاوة المتعلم كما يتلو التلميذ على أستاذه ليُصحِّح له

﴿ ولَـٰكنَّا كُنَّا مُرْسلين (٤٥) ﴾ [القصص] أى : أن الرسالات كلها منا : مَنْ كان يقرأ ، ومن كان أمياً .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وما كُنتَ بجَانب الطُّور إذْ نَادَيْنَا .. (٤٦) ﴾ [القصص] أى : موسى عليه السلام ﴿ ولَـٰكن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٤٦) ﴾ [القصص] أى : أنك يا محمد ما شهدت هذه الأحداث ، إنما جاءتْك بالفضل من الله ﴿ لتُنذر قَوْمًا مَّا أتاهُم مِّن نَّذيرٍ مِّن قَبْلك لعلَّهُم يتذكَّرُون (٤٦) ﴾ [القصص] يتذكَّرون ما غفلوا عنه من الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها .

وكلمة (وما كنت) فى مواضع عدة فى القرآن تدل على أن رسول الله جاء بأخبار لم يقرأها فى كتاب ، ولم يسمعها من مُعلِّم ؛ لأنه لا يقرأ ، ولم يُعرف عنه أنه جلس إلى مُعلِّم ، وأهل الكتاب هم الذين يعرفون صدْق هذه الأخبار ؛ لأنها ذُكرت فى كتبهم ، لذلك قال القرآن عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كمَا يَعْرِفُونَ أبْنَاءَهُمُ .. (٢٠) ﴾ [الأنعام]

ويقول سبحانه ﴿ إنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ [الأعلى]

ومن علامات النبوة أن يخرق الحق سبحانه لنبيه ﷺ حُجُب الغيب ، والشيء يغيب عنك إما لأنه ماض ، ولا وسيلةَ لك إليه ، وهذا هو حجاب الزمن الماضى ، وهو لا يُعرف إلا بواسطة القراءة فى

كتـــاب أو التـعلم من مُــعلِّم ، وقـد نفى الله تـعـالى هذا بالنسـبـة لرسوله ﷺ ، وإما أن يكون الحجابُ حجابَ الزمن المستقبل والأحداث التى لم تأتِ بعْدُ ، ولا يستطيع أن يخبرك بها إلا الذى يعلمها أزَلاً .

لذلك يقول تعـالى لنبيه ﷺ : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى] فكان النجم من القـرآن ينزل على رســول الله فلما يُـسرى عنه يُمليـه على أصحابه ، كل آية فى مكانها وترتيبها من السورة[1] ، ثم يقرؤها بعد ذلك كما أُنزلت ، وكما أملاها .

وسبق أنْ قُلْنا : تـستطيع أن تتحـدَّى أىَّ شخص بأن يتكلم مـثلاً لمدة ثُلث الساعـة ، ثم يعيد ما قال ، ولن يستطيع ، أمـا المسألة مع سـيـدنا رسول الله فـتـخـتلف ؛ لأنهـا من الله تعـالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى]

وقلنا : إن سيـدنا رسول الله ﷺ فى أول نزول القرآن عليـه كان يُردد الآية خلف جـبريل عليـه السلام مـخافـة أن ينساها ، فـإنْ قال جبريل : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) ﴾ [الضحى] قال رسول الله ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) ﴾ [الضحى] وهكذا ، فأنزل الله عليه : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ﴾ [القيامة]

وقـال سـبـحـانه : ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. (١١٤) ﴾ [طه]

أى : أرح نفـسك يا محـمـد ، ولا تخْشَ النسـيان ، وانتظر حـتى تنتهى الآيات ، وسوف تعيدها كما هى ، لا تَنْسى منها حرفاً واحداً .

---

(١) قال عثمان بن عفان : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كـان يكتب فيقول : ضـعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فـيها كذا وكذا . أورده السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن ١/١٧٢) .

ومن كشف حُجُب الغيب المستقبل قوله تعالى : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. ⟨٨⟩﴾ [النحل] ولو انتهت الآية إلى هذا الحدّ لقالوا : ذكر القرآن البدائيات ، ولم يذكر شيئاً عن السيارة والصاروخ .. إلخ .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يكمل الآية ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⟨٨⟩﴾ [النحل] ليجعل فى القرآن رصيداً لكل ما يستجد من وسائل المواصلات والانتقال إلى يوم القيامة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ⟨٣٦⟩﴾ [يس] فكلُّ شىء فى الوجود قائم على الزوجين ذكورةً وأنوثة حتى الجمادات التى لا نرى فيها حياة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿الم ⟨١⟩ غُلِبَتِ الرُّومُ ⟨٢⟩ فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ⟨٣⟩ فِى بِضْعِ سِنِينَ.. ⟨٤⟩﴾ [الروم]

فمَنْ يستطيع أن يحكم على نتيجة معركة بعد سبع سنين ؟ وبعد ذلك يُصدِّقه الله ، وتنتصر الروم ، وكانوا أهل كتاب على الفرس ، وكانوا يعبدون النار ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ⟨٤⟩ بِنَصْرِ اللَّهِ .. ⟨٥⟩﴾ [الروم]

ولما تشوّق الصحابة لأداء العمرة ونزل على رسول الله قوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ⟨٢٧⟩﴾ [الفتح]

فخرج بهم رسول الله حتى بلغوا الحديبية على بُعْد ٢٢ كيلو من مكة تعرَّضَتْ لهم قريش ، ومنعتهم من العمرة ، واشترطوا عليهم العودة فى العام المقبل ، وقد كتبوا وثيقة تعاهدوا فيها ، فلما أملى رسول الله على الكاتب : هذا ما تعاهد عليه محمد رسول الله ، قام عمرو بن سهيل فقال : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما حاربناك ولا رددناك ، إنما اكتب : هذا ما تعاهد عليه محمد بن عبد الله .

وعندها ثار صحابة رسول الله وغضبوا حتى راجعوا رسول الله فقال عمر : يا رسول الله ألسْنا على الحق ؟ قال : بلى ، قال : أليسوا على الباطل ؟ قال : بلى قال : فَلِمَ نعطى الدَّنية فى ديننا ، فقال الصِّديق : الزم غَرْزَهُ يا عمر ، يعنىَ قف عند حدِّك ـ إنه رسول الله[1] .

ولما أصر على بن أبى طالب أن يكتب محمد رسول الله نظر إليه رسول الله ، وقال : « يا على ستُسام مثلها فتقبل »[2] ومرَّتْ الأيام والسنون ، وقُبض رسول الله ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، فلما تولّى علىٌّ الخلافة وحدثت الفتنة بينه وبين معاوية ، وقامت بينهما حرب الجمل ثم صفِّين حتى اضطر علىّ لأنْ يكتب مع معاوية وثيقة لإنهاء القتال أملى علىّ : هذا ما تعاهد عليه على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، فقالوا له : لو أنك أمير المؤمنين ما حاربناك ، فاسترجع علىٌّ قول رسول الله : « ستُسام مثلها فتقبل » .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٢٥/٤ ، ٣٣٠) ضمن حديث طويل فى صلح الحديبية من حديث المسور بن مخرمة الزهرى ومروان بن الحكم .

(٢) وقد استشهد على بن أبى طالب بهذا فى محاجته للخوارج الذين خرجوا عليه وعتبوا عليه أنه كاتب معاوية فكتب على بن أبى طالب مجرداً من كونه أمير المؤمنين فقال : « قد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريشاً فكتب رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال : كيف تكتب ؟ قال : اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ : اكتب فكتب ، فقال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال : لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك ، فكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله قريشاً » . (البداية والنهاية لابن كثير ٧ /٢٩١) .

إذن : خرق الله لرسوله حجاب الزمن الماضى ، والزمن المستقبل ، فماذا عن الزمن الحاضر ؟ وكيف يكون خرق الحجاب فيه ؟ هذا فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة] فأطلعه الله على ما فى نفوس القوم .

وفى غزوة مؤتة ، وهى الغزوة الوحيدة التى لم يحضرها رسول الله ﷺ ، ومع ذلك سُمِّيت غزوة ـ لأن الغزوة لا تُقَال إلا للمعركة التى حضرها رسول الله ، أما فى مؤتة فقد حضرها وشاهدها وهو فى المدينة ، حيث كشف الله له حجاب الحاضر ، فصار يخبر أصحابه فى المدينة بما يجرى فى مؤتة وكأنها رَأْىُ العين .

ويومها تولى القيادة جماعة من كبار الصحابة : زيد بن حارثة ، وابن رواحة ، وجعفر بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد ، فكان ﷺ يقول : قُتل فلان وسقطت الراية ، فأخذها فلان وقُتل وحملها فلان .. إلخ فلما عادوا من الغزوة أخبروا بنفس ما أخبر به رسول الله ﷺ[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾

المعنى : لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدَّمَتْ أيديهم لَعذَّبناهم فاحتجوا قائلين : ﴿ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) من حديث أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : « أخذ الراية زيدٌ فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » .

﴿ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [القصص] فلو عذَّبهم الله دون أن يرسل إليهم رسولاً لكانت حجة لهم .

وسبق أنْ قُلْنا : إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ولا نصَّ إلا بإعلام ، لذلك تُنشَر الأحكام فى الوقائع الرسمية ليعرفها الجميع ، فتلزمهم الحجة ، ولا يُعْذَر أحد بالجهل بالقانون ، ولا يُعفى من العقاب .

إذن : قطع الله عليهم الحجة ، حين بعث إليهم رسول الله بمنهج الحق الذى يدلهم على الخير والثواب عليه فى الجنة ، ويحذرهم من الشر والعقاب عليه فى النار ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.. (١٦٥) ﴾ [النساء]

إذن : الحكمة من إرسال الرسول إقامة الحجة على المرسَل إليهم مجرد إقامة الحجة ؛ لأن قضايا الدين قضايا حقٍّ فطرى يهتدى إليها العقل السليم بفطرته ؛ لذلك وقف المستشرقون طويلاً عند شخصية عمر ـ رضى الله عنه ـ .

يقولون : تذكرون عمر فى كل شىء : فى العدل تقولون عمر ، وفى القوة تقولون عمر ، وفى وجود رسول الله تقولون نزل القرآن موافقاً لكلام عمر ، أليس عندكم إلا عمر ؟

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يدلُّنا بشخصية عمر إلى أنه سبحانه لم يُكلِّفنا بقضايا تنفر منها الفطرة ، إنما بقضايا تقبلها فطرتنا السليمة ، وتهتدى إليها بطبيعتها السوية الخالية من الهوى ، وهذا عمر لم يكُنْ نبياً ولا رسولاً ، لكن كان يصل إلى الحق بما فيه من فطرة إيمانية وعقلية سالمة من الأهواء ، حتى وصلت به الفطرة السليمة إلى أنْ ينطق القرآن بنفس ما نطق به .

وكلمة ﴿ لَوْلا .. (٤٧) ﴾ [القصص] تأتى بأحد معنيين : إنْ دخلتْ على الجملة الاسمية فهى حرف امتناع لوجود ، كما لو قلت : لولا زيد عندك لَزرتُكَ ، فامتنعتْ الزيارة لوجود زيد . ومن هذه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ .. (٤٧) ﴾ [القصص] والتقدير : لولا إصابتهم .

فإنْ دخلتْ (لولا) على الجملة الفعلية أفادتْ الحثَّ والحضَّ ، كما تقول لولدك : لولا ذاكرتَ دروسك ، وكذلك لولا الثانية فى الآية ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ (١) تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ (٤٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا .. (٤٨) ﴾ [القصص] أى : الرسول الذى طلبوه ﴿ قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ .. (٤٨) ﴾ [القصص] سبحان الله ، إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، لقد طلبتم مجرد

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٨١) : فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا قول مشركى العرب . وبه قال ابن عباس والحسن.

الثانى : موسى وهارون . وهذا قول اليهود لهما فى ابتداء الرسالة . وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد .

الثالث : عيسى ومحمد ﷺ . وهذا قول اليهود اليوم . وبه قال قتادة . وقيل : أو لم يكفر جميع اليهود بما أوتى موسى فى التوراة من ذكر المسيح ، وذكر الإنجيل والقرآن ، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين .